قصة قصيرة

الحضور الغائب

حميدة نعنع

ايه اليزابيت !

ـ ايه عائشة !

نظرت المرأتان مرة واحدة الى المطر الذي يهطل في الخارج ... تغتسل الارصفة بدمه .. والرجال يركضون هاربين من الصقيع بينما غير بعيد عن محطة مترو « مونبرناس » تتنزه نساء جميلات تحت المطر ينتظرن قدوم الليل ليبدأن ممارسة اقدم مهنة في هذا العالم . حيث الصقيع يضرب اجسادهن بريحه فيلتففن في معاطفهن وينظرن ايضا الى السماء .

اخرجت اليزابيت سيجارة واشعلتها .

اخرجت عائشة سيجارة واشعلتها .

سحبت اليزابيت نفسا من سيجارتها وتوجهت بالحديث الى عائشة .

ـ لم يتصل بك البارحة ؟...

ـ لم يتصل ، وأنت هل رأيته ؟

لقد مر على غيابه اسبوع كامل ، هكذا يبدأ الربيع عند « اندريه » .

ـ لقد عرفته في الشتاء ، كان طيبا كغيمة . ومع الربيع هاجر كطيور افريقية .

ـ لقد مضى علينا معا ثلاثة عشر ربيعا وأنا أفتقده في الليل وانتظر قدومه في النهار .

لا استطيع ان احدد البلاد التي قدمتا منها ، من الممكن ان تكون احداهما قد جاءت من القارة الاميركية اللاتينية . فلهجتها الفرنسية مطبوعة بالطابع الاسباني ووجهها لوحته الشمس وخطّ الزمن عليه اثرا لامرأة في الخامسة والثلاثين .

اما الثانية ، فقد قالت لي فيما بعد انها قادمة من ايران حيث ان السجون في بلادها لم تعد تتسع للاجساد ... قادمة من الموت ومن صقيع المدن .. عائشة لم تعرف من المدن الا صقيعها . ومن الربيع الا هجرة المناضلين في بلادها الى ظلمة السجون . وهجرة صديقها عنها الى الوحدة والعدم وامرأة اخرى ربما ..

ـ حدثيني عن اندريه قليلا ..

قالت عائشة وهي ما تزال تحدق في الرصيف الذي يبدو خارج المقهى مبللا بالماء واقدام العابرين .

اطفات اليزابيت سيجارتها في المنفضة وغرقت في الماضي .

« كان ذلك في احدى مدن المكسيك ، كان ينتمي الى مجموعة مقاتلة قدمت من البحر لكي تساعد الهنود الثائرين على الحياة . وكنت ما أزال طالبة في الجامعة رحلت مع بعض رفاقي للالتحاق بحرب الريف . هناك اكتشفت انه يمكننا ان ننتمي الى أوطان كثيرة وبالتحديد لهذا العالم الذي نحن جزء منه . لقد احببت اندريه وهجرت المكسيك لاعود معه الى أوروبا . وأنت حدثيني قليلا عن أندريه » .

ابتسمت عائشة وهي تتذكر الليلة الباردة الطويلة في احدى كنائس باريس ، اذ كانت مع عدد من الطلبة الايرانيين المضربين عن الطعام تحاول ان تبعد عنهم اضواء المصورين الذين يرون في وجوههم مادة جديدة لقرائهم ... وصل مع وفد من الكتاب الفرنسيين ليقنعهم بالعدول عن الاضراب الذي استمر عشرة ايام وكاد يودي بهم الى الموت .. وجهه وهو ينظر الى عينيها كان غابات اسئلة ... عيناه ...

ـ لا استطيع ان انسى عينيه ابدا ، مدن مظللة بالحزن ، بحار من الازرق الخارق وكذلك كفيه وهما يشدان على يدي وكلماته : « اذا متم فلن يؤدي موتكم الى شيء ، الحكومة مصرة على عدم اطلاق سراح رفاقكم ، كوني عاقلة . » ووجدت نفسي معه بعد ذلك في حجرة صغيرة تطل على السين ، على جدرانها صور لقارات بعيدة ... ووجوه لاطفال احترقت بهم المدن وظللتهم الشمس بخوفها .

لقد حدثني يومها عن النضال ... عن البنادق ... عن تفجير ثورات بعدد النجوم في وجه الارض ، لقد حدثني عن بلاد بعيدة حارة وملحية . وادركت ان كل رجل يأتي من الحرب ما هو الا رواية لها فصولها ... وابتساماتها ودموعها . وفي المساء وضع رأسه على ركبتي وغفا ، وظللت احدق الى وجهه الليلة بطولها ... كانت النجوم القادمة من النافذة تنغرز في شعره وتخرج مرتعشة بصمتها والسين يرسل لنا في الاعلى بصوته الذي يذكر باستمرار الحياة .

كانت المرأتان حزينتين ، وكان الحزن يغسل الصمت بينهما فينفجر كلمات كثيرة مشتعلة ومضيئة تلتقي فيها احزانهما وتتفجر رغبتهما بالحياة ...

كلتاهما عاشقة ، وتعرف ان الحب هو تلك القدرة اللامتناهية على العطاء . لكنه كذلك القدرة الاكبر على الرفض . في داخلهما جرح ينزف وباستمرار والجرح الذي جمعهما في تلك الساعة من نهار شتوي في زاوية مقهى من مقاهي « مونبرناس » ما هو الا انتماؤهما لرجل واحد . اليزابيت هي زوجته الشرعية التي امضت معه ثلاثة عشر عاما وأنجبت منه طفلة . والثانية عشيقته التي تعيش يومها الدائم رغبة في النفاذ الى داخله .

واندريه بعيد في تلك اللحظة ... بعيد عنهما ... جاء الربيع فحمله مرة اخرى الى امرأة ثالثة ربما .

بالامس ،

يوم التقتا للمرة الاولى . ابتسمتا ...

نظرت كل منهما في وجه صاحبتها وادركتا انهما آتيتان من البعيد .

بالامس عندما رن جرس الهاتف في بيت اليزابيت الواسع ، لم تكن تعلم ان محدثتها على الطرف الآخر هي تلك التي قال عنها اندريه ذات ليلة في لحظة التصاقه بجسدها : انها اجمل نساء العالم . ويومها لم تبك اليزابيت كعادتها في السنوات الاولى من زواجهما ، ولم تضحك ابدا هازئة من عباراته ، لم تنسحب بجسدها بعيدا عنه ، لقد اعطته كما لم تعطه في حياته ، وظل وجه المرأة الاخرى امامها يبتسم لها بطيبة وفرح .

لقد تعودت من قبل ان تسمع ان « اندريه » مع امرأة اخرى ، لقد تعودت أن ترى أخباره على صفحات الصحف والمجلات وصوره بجانب نساء جميلات وحارات كشمس بلاد استوائية . كان يقول لها في كل مرة تسأله فيها عن صحة أخبار الصحف :

– انت تعرفين جيدا ان أي لقاء بامرأة بالنسبة للصحافيين علاقة غرامية وقصة حب .

وكانت تقتنع ، أو تقنع نفسها . فكانت تشعر انه يرتبط بها برباط اقوى من الحياة نفسها ، هو ماضيهما كمناضلين، والعذاب الذي تعرضا له معا في أحد سجون المكسيك وايضا ابنتهما التي كانت مطلب رفاقهما جميعا . كان الرفاق هناك يقولون لهما وهما يتعانقان تحت الشمس : « عليكما بانجاب طفل ، هكذا يمكن للثورة ان تستمر » . وقد سقط رفاقهما... ماتوا... تحولوا الى سجناء ... تشردوا في هذا العالم وهما عادا الى وطنه ليتزوجا وينجبا تلك الطفلة .. ولكن يوم حدثها عن عائشة ، ، عرفت ان شيئا ما قد حصل ... لا بد وان اندريه قد اكتشف جسده في جسد آخر ، الجسد الذي عجزت هي عن انتمنحه ذاته ، وقد سألته يومها بحب :

– ما لون عيني عائشة ؟

– سوداوان .

نظرت امامها الى عيني عائشة المزروعتين بالرصيف ولاحظت اشعاعهما . بقرة وحشية هربت من الغابة .

– ولون شعر عائشة ؟

– اسود كالليل .

نظرت الى شعر عائشة الطويل وهو يغطي كتفيها ، واحست برغبة داخلية عميقة بلمسه فمدت يدها ومسحت على رأس عائشة . ابتسمت الاخرى وحولت عينيها اليها :

– حدثيني عن الشتاء مع اندريه ؟

أشعلت اليزابيت سيجارة أخرى :

– في الشتاء يشتعل فرحا وعطاء . يكتب . ينام قليلا ويدخن سجائره بشراهة . وعندما يكتشف ان المطر غزير وان الثلج يغطي الجبال القريبة من باريس يحاول ان يبكي .

تذكرت عائشة .

« ذات مرة كان الحب يغسل وجهه ويسقط على صدره . كان الرصيف الآخر من النهر يغرق في اضواء مطاعم السان جرمان ، وكانا معا يعبران ساحة « بوان كاردينال » . توقف قليلا في زاوية رواق يحمي نفسه من المطر وقال لها :

– غدا علينا ان نوقف الشتاء ، ان صقيعه يهدد امننا .

وشعرت بالبرد يسري في جسدها ... قشعريرة اخترقت جلدها وانغرزت في شرايينها . الدماء تجمدت في مجاريها .. احست بحاجتها الدفء انساني ما يمنع عنها تلك اللحظة من الارتجاف . فمدت يدها الى يد اليزابيت المبسوطة على الطاولة وأمسكت بها ... فشدت تلك اليد على يدها بحرارة وعطف وظلتا صامتتين .

لماذا ارادت ان تلتقي اليزابيت ؟ هذا الفضول الشرقي الغريب الذي دفع بها ان تبحث في كل مكان عنها ... أبدا ليس الفضول وحده ... لكنها الرغبة الغريبة في معرفة « أندريه » بشكل أفضل ... الرغبة بملامسة كل ما لامسته يداه منذ طفولته حتى الآن ... الرغبة نفسها التي دفعتها ذات ليلة لان تقطع باريس على قدميها لتقف امام البيت الذي ولد فيه ، بعد ان عرفت صدفة من احدى صديقاتها عنوان أمه. عندما سألته عن اليزابيت وضع نظارتيه على عينيه حتى يمنعها من رؤية الابعاد السحيقة لرجل ممزق :

– لقد افترقنا منذ زمن ، اليزابيت بمثابة اخت لي ... اخت وصديقة .

وشعرت أن حبا اكبر من الرعشة والرغبة يشده الى اليزابيت . الحب الذي ينحول في النهاية الى علاقة اقرب الى العبادة منها الى الرغبه الجسدية . وعندما ابتدأت تفتقده . عندما اصبح يزورها في ليال بعيدة ومتفرقة ظنت انه قد عاد الى اليزابيت . بحثت عنها في كل مكان ... سالت اصدقاءهما ... واخيرا اهتدت اليها . كانت تريد ان تقول لها انها لا تشعر بالغيرة منها . ولكنها تحبها ايضا لانه يحبها .

وجه اليزابيت امامها وقد خط عليه عذابه ، لا بد وانها كانت شقية في علاقتها به

ـ هل كنت سعيدة معه ؟!

هزت اليزابيت رأسها بحركة لا هي النفي ولا الاثبات .

ـ وانت ؟ هل كنت سعيدة ؟

شعرت برغبة بالبكاء . لقد هجرها ليالي طويلة ، وكان الربيع في اوله ..

في كل ربيع يهاجر اندريه الى الصمت ونفسه والوحدة وامرأة اخرى . ومع كل ربيع تشعر اليزابيت بأنه لن يعود مرة أخرى .

جاء الخادم ليسألهما رغبة في شيء ... نطقتا بكلمة واحدة :

ـ قدح من الكونياك .

وبعد ان مضى الخادم عنهما . حدقتا من جديد في عيني بعضهما وابتسمتا . لقد تعودتا معه ، وتحت المطر ان تطلبا قدحا من الكونياك تستمدان من دفئه دفئا يغسل صقيعباريس . وتتذكران فجأة الشمس التي هجرتاها .

احتستا بصمت قدح الكونياك . بدأ الليل يخيم على حي مونبرناس واخذت الحركة المكتفة تختلط بحبات المطر التي لم تنقطع منذ البارحة . نهضتا معا واتجهتا الى الباب ... هبطتا الى الرصيف الحجري وسقط المطر على راسهما . لم تكن معهما مظلة . خلعت عائشة معطفها وفرشته عليهما . واختفتا في عتمة الطريق .

* * *

ما زالت تمطر ...

البيت الريفي في « مانت الجميلة » يختبىء بين اشجار الدلب والكافور .. مسافة طويلة تفصل بينه وبين سهول النورماندي الشديدة الخضرة، تبدو السماء في الاعلى داكنة بينما تعبرها الغيوم باتجاه البحر ...

من هنا يأتي البحر .

تذكر اندريه انه قد امضى ثلاثة ايام دون ان يتناول طعاما ، وان روايته أشرفت على نهايتها . ترك مقعده خلف مكتبه وأخذ يذرع صالة الاستقبال جيئة وذهابا . كان راسه في تلك اللحظة يغادره الى مكان آخر ... رحل الى القارات البعيدة حيث عرف لاول مرة ما معنى ان تكون ثوريا وعلى ابواب الموت حيث المعركة تفاجئك في الصباح وتودعك مع الفجر ... انه يشعر بالعجز عن الاستمرار هنا ... الوحدة مسألة لا تطاق ...

الوحدة ، كيف ؟ تساءل اندريه وهو يتراجع الى الخلف ، ليمتنع عن مواجهة وجهه في المرآة .

واليزابيت ،

وفلورنس ابنته ،

وعائشة ،

وامه وابوه والعائلة كلها ...

لقد اكتشف فجأة انه ينتمي الى كل هؤلاء مرة واحدة . ومع ذلك فان الاحساس الرهيب بالوحدة ما زال يطارده .

« عندما كنت هناك حيث الموت يلاحقك والرفاق يحيطون بك لم تكن تعرف الوحدة . »

عائشة قالت له منذ أيام ، انها تشعر بأنها وحيدة.

قالت ذلك بينما كانت شفتاه تطوفان على صدرها، نحولت الى ثلج . وعبثا حاول ان يوقظها ... حدقت في عينيه بعمق ... بحزن وقالت له : انها وحيدة ، وما زالت تمطر .

الهاتف يقرع بشدة واندريه ما زال امام صورته في المرآة ...

حتى يطرد شبح الخوف من صورته اسرع الى الراديو وأدار ابرته على محطةتبث موسيقى كلاسيكية . سار باتجاه مكتبه والقى بنفسه على مقعده . عليه ان يخرج من هذا البيت ويتصل بالعالم الخارجي ... عليه ان يعبر الجدار الذي يفصل ما بينه وبين المطر .

سمع قرعا خفيفا على زجاج النافذة . أسرع يزيح الستائر المخملية الزرقاء التي اصرت امه ، يومشراء هذا البيت ، على ان تعلقها . وكان يعتبر حرص امه على تلك المظاهر مزحة برجوازية ثقيلة . عندما اطل من خلف الزجاج وقعت عيناه على الحديقة . بأشجارها العارية لمح بجانب جذع شجرة اللوز وجه عائشة وقد بلله المطر ...

شعر بحقد على عائشة .

شعر بحقد على اولئك القادمين من بلاد اخرى ، انهم اكثر استجابة لذاتهم .

ما ارعبه في تلك اللحظة ان عواطفه كلها تجمدت في وجهه . وها هو ملاحق في وحدته . لقد أصرت عائشة على أن تأتيه هنا .

ما زالت تمطر ...

وجه عائشة الى جانب السنديانة العجوز وشعرها مبلل بالماء ... ترتجف بصمت ... ويداها متصلبتان على صدرها ، البرد قادم من كل زاوية ، من كل شجرة ، من كل نسمة هواء ... الارض تمطر حزنا. مشى باتجاه الباب الخارجي وفتحه ، ثم وقف الى

جانب العتبة يتأمل عائشة وهي تقطع المسافة ما بين شجرة السنديان والمدخل ، يغسلها المطر والحزن .
ـ لقد فكرت أن آتيك هنا ، قلت لا بد وانك قد اخترت العزلة .
لم يجبها بشيء .
عبرت عتبة البيت ، وعندما أصبحت في الداخل أغلق الباب خلفها واتجه الى مكتبه .

ظلت عائشة واقفة في الممر المعتم والبرد ينخر عظامها . ماذا جرى لهذا الرجل ؟
بالامس كان أندريه يمنحها الفرح . ومعه وحده كانت تجد الرغبة بالحياة ، ومعه وحده تمنت الموت . لحقت به الى المكتب فوجدته جالسا ورأسه بين يديه . تأملت مفرق شعره وشعرت برغبة عميقة في تقبيله . رفع عينيه اليها :
ـ ما الذي جاء بك ؟
ـ قلت لا بد ...
ولم تجد الجراة لاتمام عبارتها ، لمحت على الجدران المطلية بالازرق صورا كثيرة لسجون تفتح أبوابها . ورأت مناضلين كثيرين من رفاقها يعبرون اليها والقيود في أيديهم .
آه لو تستطيع الآن أن تقتلعه من داخلها وتلقي به الى الريح . انها ما تزال تحمله كشيء يعود الى عصر آخر وجد ذات يوم صدفة ونحن ما زلنا نمسح عليه بأيد جاهلة . أية عبادة تحملها له وأي خطأ في الفهم . ظلت عيناه مركزتين في عينيها . كان رأسها بعيدا هناك في طهران حيث تمطر السماء رعبا على رفاقها .
« لقد وجدته صدفة ، مسحت على رأسه بيدين جاهلتين ، أشعة من عبادة مجهولة ... من سلطة زائلة ... حمل من الوجع ... العالم يتحول وهما ، عددا باقيا من رقم مجهول » .

جلست على المقعد المقابل وتأملت بعينيها وجهه.. وجوده الذي سكنها دون أن تدري .. الذي شغل اهتمامها ولفترة طويلة .. كم هي مملة هذه الحياة العديمة التي تحياها .
ـ أندريه . انك متغير برعب . أصبحت حائطا مدورا يدافع عن حقيقته فقط !
ـ هكذا انت .. لقد سكنت في صدري وكأجراس في الفضاء توقظين الذكريات ... تستيقظين ثم تمضين حاملة معك الصبر والخوف والحلم .

مرت دقائق صمت بينهما . شعرت انه يمضي بعيدا عنها ... انها تحبه ، هذه هي الحقيقة الوحيدة التي تحياها في هذه اللحظة ، ولكن عليها أن تقتلعه من داخلها ، فهي لم تخلق للحب ولا للعشق ..
ـ هل تسمعني ؟ لقد قررت أن اقتلعك من داخلي .. أن اتحرر منك . اسمعني . لا تحاول أن تمضي .. أبق هادئا . انني مصرة على سماع صوت نفسك ، على النظر الى وجهك العاري .

تذكرت فجاة وجه اليزابيت الملوح بالحزن ، فازدادت رغبة في الصراخ في وجهه :
ـ لا تحاول أن تهرب ، لا تتحرك . انني مصرة أن تسمعني .
نظرت اليه على المقعد المقابل وقد تحول وجهه الى فراغ . رددت كأنها تخاطب نفسها :
ـ هل انت خائف ؟
لم تسمع أية اجابة.. استمرت تردد كأنها تخاطب نفسها :
ـ لماذا لا تتكلم ؟ لست بغاضبة .
لم تسمع أية اجابة ..
لقد كانت فرحة من غير شك .
كانت تدري انها أمام صمته الدائم كثيرا ما كانت تثور وتغضب وتلقي بكلمات كثيرة ، كلمات تشعرها في النهاية انها مخطئة ، فتقترب منه وتمسح على جبينه وينتهي كل شيء . كانت تريد اشعاله ، اشعاره ان الحياة شيء آخر غير شقته المطلة على السين حيث يمضي نهاره في الكتابة ثم ينتقل الى بيته الريفي وحيدا ... لقد أحبت أن تقول له : ان الطريق شيء آخر ، في الطريق يركلون .. يضربون .. يغتصبون .. من الصعب كثيرا أن نكون متوازنين وعاقلين في الخارج حيث العالم رمادي .. كم يبدو أندريه متوازنا أمام العالم الخارجي ... من السهل أن يكون متوازنا انسان مثله يقضي يومه بين حجرتين .

عندما أحست ان وجهه قد بدأ ينفرج قليلا اخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا . كانت تريد أن تطرح عليه سؤالا وحيدا . لكنه سؤال لا يمكن أن تحصل على اجابة له .. أو ربما سيجيبها كما يجيبون رفيقا مناضلا بعد خروجه من السجن عندما يسألهم عمن مات أو أعدم . على كل حال كلمة رفيق غير صالحة هنا .. اذن لنفكر بكلمة أخرى ... هل سيكون الى جانبها في لحظة الموت ؟ لماذا تطلب أن يكون الى جانبها في لحظة الموت ؟ لماذا تهاجمها فكرة الموت في هذه اللحظة ؟ لماذا هذا الادعاء وهوس الانتحار يسيران في رأسها معا ؟ لقد بدأت الحياة تتحول في رأسها الى مرسوم دماغي وكفت منذ زمن عن أن تكون نتيجة حبل بطني . لا شيء يعطي نفسه ... بل يتلقى . وعلى الموت كذلك أن يكون متواضعا ، فلا ينبغي تجنبه ولا السعي اليه طواعية وانما ينبغي علينا أن نتلقاه حيث هو ، وكما هو ، وحين يأتي بلا تعقيدات ... ان الطبيعة تصنع الامور خيرا منا .

سيكون الى جانبها رجل من تلك البلاد الحارة حيث الحياة تحت درجة خمسين في الظل لا تطاق .. أحدهم ، أمام نزاع متواضع ، لن يكون نزاع البطل ولا

الجندي ولا الشهيد . بل نزاع امرأة مشردة عادت الى وطنها قبل الموت ... موت مصحوب بصراخ عادي .

سقط شعاع حاد من النافذة لغيمتين تصادمتا .. رأت بشكل أوضح وجه أندريه تحت الضوء . كان جامدا وخاليا من أي تعبير .

ـ هل تسمعني ؟

صرخت من مكانها ..

احساس غامض بفراغ وجوده ..

لماذا يعيش هذا الرجل في حياتها ؟

ـ اندريه ، لماذا أنت صامت بهذا الشكل ؟

تمرّ الساعات وهو ما زال امامها هكذا . ومنذ زمن وهو يعيش دون ضجة .

وهي لم تحاول من طرفها ان تعبر اكثر لتفهم ما الذي يدفع به الى هذا الصمت. كانت تنتظر اشارة ما من عينيه لتغير مكانها على المقعد فتنتقل الى جانبه . كانت تدري أن تلك الاشارة لن تكلفه شيئا ولكنها ربما ستغير في حياتها أشياء كثيرة .

لكنه ظل صامتا . وجهه مصلوب على المقعد أمامها ، عيناه ضائعتان وضباب سجائره يملأ الحجرة .

ايتها الغربة كوني لي وطنا .

كانت عائشة تسمع ذلك الصوت الذي كان يرافقها دائما في اللحظات الحاسمة من عمرها .. لحظات الحب ... والسجن والنضال السري . وقفت واتجهت الى النافذة . تأملت المطر الذي يسقط دون انقطاع ... أوراق الاشجار الميتة تغادر أمها باتجاه الارض ، والمطر يتجه الى الارض . حتى الغيوم التي تعودت أن تراها على أشكال خراف صغيرة ها هي تبدو في السماء سفنا مسافرة باتجاه الافق الذي يلتقي في نهاية الخط بالبحر ، بالارض . بالرجل . سمعت صوت قلم اندريه على الورق . لا بد انه يكتب في روايته ... رواية الرجل الذي لم يعد يجد له أرضا في وطنه . انه غريب ممزق، مثلها في تلك اللحظة يحاول أن يهرب من تمزقه وغربته ليبني على الورق غربة أخرى .

* * *

ابتدأ الليل بسود وجه الارض .. ابتدأ المطر بالانقطاع ... الريح التي كانت تعصف بالاشجار العارية تمرّ الآن بصمت من خلف الجدران والنافذة . واندريه ما زال يكتب ، وعائشة ما تزال تتأمل الصمت في الخارج . من بعيد تبدو سهول « بريتانيا » الدائمة الخضرة وخلفها تعرف عائشة ان البحر ما زال هناك .

توقف اندريه قليلا عن الكتابة ورفع راسه يتأمل ظهرها وشعرها وجسدها النحيل الذي يختفي وراء « الجينز » وكنزة رمادية . احسّ في تلك اللحظة برغبة مطلقة لامتلاكها . حاول أن يقنع نفسه ان الآخرين هم الجحيم . وان جسد عائشة لم يكن بالنسبة له الا العذاب . في الوقت الذي كان جسد اليزابيت الخطيئة. فكرة الخطيئة ما فتئت تلاحقه أينما اتجه .. لم يعد ، منذ زمن ، يؤمن بالآلهة والاديان والمسيحية . ومع ذلك فان جسد اليزابيت يمثل له الخطيئة . احساس ما بالذنب يلاحقه بعد كل مرة كان يضاجعها .. كان يطفيء الضوء ، ينزل الستائر ، يشعل سيجارة وينظر بعينيه الى السقف بينما ذراعاه تطوقانها . وكانت حارة كالشمس .. كانت دائما في حضور دائم .. ولكنه هو لم يكن أبدا في حضور دائم .

في المرة الاولى التي ضاجع فيها اليزابيت كان ذلك تحت الشمس المكسيكية . هناك في ظل شجرة على حدود اولارغواي حيث كل شيء ينتظر أن يتغير وأن يثمر .. وأن يعطي حبا ... هناك عرف للمرة الاولى الشحنة الانسانية الاولى لجسدين يتفجران حبا ، وهناك عرف ان الصخور التي تنتشر على الهضاب المجاورة لا بد وانها تدرك أهمية لقاء جسدين .. يومها لم يكن يدرك معنى الخطيئة .. هناك كان قانون الثورة هو الذي يحكم كل شيء . ومنذ عادا الى باريس ، وفي كل مرة يلتقيان ، يشعر بذنب قاتل ، حتى انتهى به الامر أن يعيش بعيدا .

ذات مساء ، كانت اليزابيت تغرق في حزنها ؛ ووجه طفلتهما يضيء الزوايا المعتمة في البيت الواسع. صوتها .. ضحكتها .. قالت له اليزابيت : انها منذ شهور قد التقت جسدا آخر . لم يعلق بشيء . ظل صامتا . تساءل في سره اذا كانت قد شعرت بعد ذلك بالخطيئة .

في تلك اللحظة التفتت عائشة ، فالتقت عيناهما ، ولحظ للمرة الاولى حبات نمش خفيفة تنتشر على أنفها . للمرة الاولى يلاحظ ان ملامحها آسيوية وان عينيها الواسعتين تختصران الكثير مما تحكيه. ابتسمت بصمت .

تكلم أندريه :

ـ قولي لي : ما هي أصولك الحقيقية ؟

ادارت راسها الى النافذة وحاولت أن تخفي تعبيرا انطبع على ملامحها .. لو الحّ أندريه في تلك اللحظة على معرفة أصلها لقالت له انها عربية ، وقد ولدت على الحدود العراقية . لم تر وجه أبيها ، لقد كان أحد مناضلي حركة تحرير عربستان . وقد اعدم . جثته علقت ثلاثة أيام في ساحة عامة بطهران ، وأمها تلك الأم العنيدة ... لقد أصرت على أن لا تغادر الساحة العامة ثلاثة أيام ، ملتفة بملاءة سوداء وجالسة القرفصاء ، بينما عائشة الى جانبها ترتجف من البرد . كانت في الثالثة من عمرها ، وهي لا تذكر الآن وجه أبيها ؛ لكنها تعرف ان أمها رفضت أن تستبدله برجل آخر ..

منذ ذلك الوقت وعائشة تعرف جيدا انها لا

تستطيع أن تقول انها عربية أمام أحد .. لقد هجّرهم الشاه من عربستان الى شمال البلاد ، وفرض عليهم الاقامة الجبرية . بعد أشهر ثلاثة أرسلت مع أحد الراحلين الى بغداد خوفا عليها من انتقام السلطات التي أعدمت أباها . وهناك كبرت بعيدة عن أمها ..

هناك علموها ان بلادها خلف حدود الجنوب وان أباها قد علق ثلاثة أيام في ساحة عامة لانه دافع عن تلك البلاد وان أمها ما تزال تعيش .

الثأر مسألة قديمة في حياة العربي ... البدوي الذي لا يثأر لا يمكن له أن يرفع رأسه بين أقرانه ... وقد ينتظر طويلا لكنه يثأر في النهاية ... ربما أربعين سنة .. لكنه يثأر .

كل ما يشكل زادها لكي تتحول الى مناضلة حملته في عينيها منذ الطفولة ، وهي تنتقل سرا عبر الجبال الفاصلة ايران عن العراق .. وهي تسافر سرا الى أمها لتلتقي بها على الحدود .. وهي تركب الطائرة بجواز سفر مزور وتنتقل الى أوروبا .. وهي تلتقي برفاقها المناضلين في باريس .. وهي تنتظر في كل مرة تتذكر وجه أبيها الذي ما عرفته الا على صفحات الصحف القديمة التي حفظت لاجلها .. في كل مرة تتذكر وجه أمها وهي تلتقيها سرا في بيت أحد أكراد شمال العراق ثم تعود في اليوم التالي .. لقد كانت الوريثة الشرعية لابيها .. الوحيدة التي يحق لها أن تنتقم له وهي تحضر نفسها منذ ذلك الوقت .

صغيرة علموها استعمال السلاح . وصغيرة كانوا يحرمونها من الطعام ليومين حتى يشتد عودها وتتعود على الصبر ، وصغيرة علموها ثلاث لغات ، لغة عدوّها قبل كل شيء ، وقالوا لها ان هناك مناضلين مثلها ينتشرون في هذا العالم وانها قد تلتقيهم فجأة في طريقها .

لقد تعودت أن تقول انها ايرانية حسب جواز السفر الذي تحمله . وعندما وصلت الى أوروبا التحقت برفاق مناضلين وعاشت بينهم . لقد شعرت انمعركتها الفردية لا تنفصل عن معركتهم ولكنها ما زالت تنتظر .

مرت دقائق صمت بينهما ووجهها ما يزال متجها الى النافذة وظلام رمادي يتسلل عبر الزجاج فيغطي شعرها وكتفيها .. أحست بيده على كتفها . التفتت ، كان قد ترك مكتبه واقترب منها . أحنت رأسها على كتفه وظل الصمت يقتلع لحظة الاتصال .. كانت غربة ما تنبع في هذه اللحظة على حدود أوطان كثيرة متفرقة وترتعش بدمها تحت قدمي عائشة وأندريه الذي لم يعد يعرف له وطنا .

ساراً معا باتجاه الاريكة التي تتصدر الصالة ... استلقت على ظهرها ووجهه ما يزال يمسح رأسها وعينيها وأنفها ... هذه المرة هي التي تحدق بالسقف بينما ذراعاه تطوقانها. فجأة تذكرت انها لم تنزلالستائر بعد . نظرت الى النافذة . كان الظلام في الخارج يغطي كل شيء لكنها شعرت برغبة عميقة بالاختفاء خلف شيء ما .. في ظل شيء ما .. حدقت في وجهه :

ـ أندريه ، لم تنزل الستائر بعد .

* * *

ما زالت تمطر .

البارحة أمطرت .

واليوم ما زالت تمطر . هذه هي مغامرتهما ... نهض من السرير واتجه الى الجدار الذي يفصل عتمة الغرفة عن عتمة السهول الخضراء في الخارج ، كان يسير ببطء ويداه معقودتان على صدره ككاثوليكي قديم يؤدي صلاة ما لآلهة ما . عندما اقترب من النافذة سقط الظلام على وجهه فحاول أن يتجاهله قليلا حتى يتاح له أن يصل الى الجدار ... مد يده فجرّ الستائر ومنع الظلام الخارجي من التسلل الى الظلام الداخلي .

عائشة جمرة تحترق هناك في الزاوية ... الظلام يلفّ جسدها وشعرها وعينيها وحبات النمش فوق أنفها . تحاول أن تزرع نفسها في تلك اللحظة وتنسى عربستان وبغداد والحدود الشمالية .. تحاول أن تكون في هذه اللحظة امرأة .

تعرف انها ستفشل كامرأة ، لقد فشلت اكثر من مرة . مع كل رجل كانت هي الوطن المحتل الذي لم يعد يتكلم عنه أحد . حتى في بلادها الاخرى حيث كان الاحساس الدائم بالغربة يلاحقها . تنفست بعمق ومدت يدها فجذبت الغطاء وسترت به جسدها . عندما اقترب أندريه منها كان الظلام في الداخل يطفى على كل شيء ... كان الظلام يصل الى عينيه ووجهه وذراعيه وجسد عائشة البارد كالثلج . غمرها بجسده وحاول أن يرسل اليها بالدفء ، لكنه سمع صوتها يأتيه من عالم آخر :

ـ اندريه لا تحاول ، انني أشعر بالوحدة .

ابتعد قليلا ومد يده فأشعل النور ..

كاناحساسمطلق باليأس يسيطر عليه وهو يحاول عبثا أن يبعده .

باريس